بعد القيامة

صحراء
لا نهائية، بقدر ما تشتهين
وليكن هذا التوهُّج المدهش
شمسك الجديدة
إنما الأزل
يظل أزلك
وجموح الشوق ،

هذا المنطلق بلا ضوابط
يظل اسمه الأبد !

لم ينته كل شيء
تحدَّثوا عن القيامة
عن بدايات كبرى
وبمحض إرادتهم
أشعلوا النار في أطرافهم
حين أوشكت على الخمود
أجَّجوها بالحسرة
منكفئين على وجوههم
لائذين من برودة اليأس
بشهوة جامحة للاحتراق
فاصعدي، نأمة أخيرة
واذهبي أدراج الرياح
من اقصى الوجود
إلى أقصى العدم

حيث تنتظر على أحرّ من الجمر
رغبةٌ لا تُردّ
في اكتساح المغاليق
بدوّاماتها الغامضة المستدرجة
هناك فيما بعد القيامة
الشيء الذي طالما تحدَّثوا عنه .
يرتعش كثيبٌ حار
تتحرك رماله الحياديّة
هى ذي تتشكل وتتضح تقاطيع الجسد
تتماسك التداعيات الهلاميّة
ببطء ، إنما بإصرار .

لحظات ،
ينبلج من خفقان الصحراء
جسدٌ يكون اسمه المرأة
مرحىً
مرحىً أيتها البدوية السمراء

يا مفتوحة العينين
وما من كلام .

أتطلع حولي مصعوقا
أبحث عن جسدي
ولا أجده .

أيتها الأشياء الغامضة
أعينيني على امتدادك الباهر
على هذا الهدوء الموبِّخ
مثل إله ساخط
يرقب العصاة
غير آسفٍ لمصيرهم الرهيب .
أتحسس أطرافي
ولا أعثر عليها .
أستجير بحاسة البصر
ولا شيء

غير الشحوب المحايد .

فجأة ،
تشعّ حرارة منعشة
في الرمال المكتظة على روحي
فجأة ،
أكتشف يديّ وساقيّ
هي ذي أطرافي
تتكامل في أكداس الرمل
فجأة ،
يُبصر بي جسدي
أنذا أخلقُ صورتي على صورتي
أنذا الإنسان الأول
على كوكب ثانٍ
يكون اسمه « دير ياسين » .

إذن يجوز القول بثقة تامة

إن الخليقة تعيد النظر في ذاتها .

في البدء

تكون إعادة النظر

يرى المرء أن ذلك أحسن

ويعيد النظر

في القوانين

وقوانين القوانين

يحمل الظواهر على محمل الجد

تحسُّباً لما يُخَبئه المستقبل من مفاجآت

في دوّامة المجرّة الساحرة

ذات الأجرام الأرضيَّة

المندفعة من أرحام البراكين

ليتلقفها علماء الفضاء

مباركينها بأجمل الأسماء :

ليديتسي

كفر قاسم

صبرا

شاتيلا

قيس وليلى

ماي لاي ..

ولا يسع المرء

إلا أن يكابد الدهشة

إزاء الاختلال الرهيب

في الأعراف والمعايير

سقوط المعادلات دفعة واحدة

ناهيك عن ورقة التوت

التين

البانكنوت

تباليغ الشرطة

ضريبة الدخل

تذاكر السفر

الأنباء التي وردتنا في هذه اللحظة

بيانات الإنقلابات

الإقامات الإجبارية

ثم شهادات الميلاد
والزواج
والشهادات المدرسية
ثم ، المواثيق الدولية
وفق الخانات الصحيحة :
العالم الثالث
السوق الأوروبية المشتركة
الإنحياز وعدم الإنحياز
السلاح النووي
نزع السلاح
المياه الإقليمية
البورصة
شهادات الموت ..
أيتها البدوية
يا التي لم تنطق بعد
هلمّي إليّ
نمنح الأشياء الجديدة

أسماءها الجديدة

لتمنحنا بدورها

اسمينا القديمين ..

وكل شيء يسمِّيك حواءَ الكارثة

وكل شيء يدعوني آدمَ الإنبعاث .

ألم يكن ثمة مناص من تلك الكأس ؟

هل كانت التجربة مرضاً طفولياً ؟

لا تسأليني النسيان

المستقبل نضجُ الماضي

والستبلة مرهونةٌ بحفنة التراب

حفنة التراب وديعة الريح

الريح توأم الموجه

وما أنتِ بدوني ؟

باسمي تقومين من بين الأموات

باسمك

أجعل الموت معقولاً

تحية صباحٍ أليفة
إنحناءةً على سياج الجيران
من أجل وردة صغيرة
للياقة المشبعة بعرق الكدح .

أيتها البدوية العذراء
يا مفتوحة الفم
وما من كلام
ها أنتِ تحملين عتاد الدهور
على كاهلك الغض
وعبر جدار القيامة الشفاف
تبصرين كل شيء
الأعاصير
الأيدي الملطخة بالدم
الأطفال المتشبثة لثاتهم
بنهود أمهاتهم المقطوعة
كل شيء

الأشجار الملويّة في الوحل
العمارات الشاهقة السوداء
النوافذ المخلّعة
الهياكل العظميّة المتفحّمة على مقاعدها
وقد وضعت ساقاً على ساق
وأشعلت سجائرها
قبالة جهاز التليفزيون
الذي يواصل تحت الأنقاض
عملية البث المباشر
من الجلسة الطارئة
في هيئة الأمم المتحدة
مؤتمر القمة
القيادة العامة
الهيئة العليا
وهلمجرا ..

تُبصرين

عبر جدار القيامة الشفاف كواتم الصوت
على فوهات المسدسات السريَّة
ألكلبشات المطليَّة بالنيكل
هراوات الشرطة
الدبابات
قنابل الغاز المسيل للدموع
المظاهرات
إطارات السيارات المشتعلة
والرصاص الذي يُطلق في الفضاء
يعتذر للملائكة
ويختار طريقه المستقيم
إلى صدور طالبات المدارس ..

آنذاك
تهرع الهيئات الدولية
لمحاصرة التداعيات وردود الفعل
أما عصابة السخط المزمن

فتمارس حريتها المطلقة
في أكبر عملية سطو مسلَّح
عبر التاريخ !

الحاضر أكذوبة بريئة
وحتى نرى المستقبل
فلا بدّ من التعامل المنطقي
مع الماضي
الماضي الماثل أمامنا دائماً
عملاقاً أخطبوطياً
حرزاً معلّقاً فوق القلب
وندبة على الشفة السفلى .

أيتها الصحراء
أيتها البكارة
ها نحن هنا
وحيدين غريرين
مكلفين رسمياً

من جهة القلب والعقل
بإعادة بناء العالم
بإعداده من جديد
للقيامة القادمة ..

في مجاهل ما قبل الرمل
قامت على التخوم
مملكة تُدعى آر. بي. جي.
كان شعبها من الأطفال
وكانت مليكتهم
سنونوّةً تطير دوماً نحو الربيع
أما الملك
فكان حجراً .
مات الحجر
فصار وردةً
ماتت الوردة
فصارت تفاحةً .

من رماد الموتى
انطلقت عنقاء جديدة
تطير دوماً نحو اسمها .
والأطفال يتصايحون
تحت جنازير الدبابات التوراتية :
« ها نحن
نخترق النهاية
ها نحن نبدأ
نهذِّب الحجر
نكتشف النار
ونقتصد بالبذار
إنما نُسرف في الحُب ! »
حذار يا صحراء الجسد
حذار يا بدويَّة الروح
ندجِّن الريح
نروِّض الينابيع
أما النسور والببغاوات والفهود

فعلى رِسلها ،
وللعصافير أن تبني أعشاشها
كيف شاءَت
في تجاويف الجماجم المتناثرة
على مدّ النظر ..
جذعاً إلى جذع
حجراً إلى حجر
وتكون العلامة .
من هنا نبدأ
تساورنا الشكوك أحياناً .
يفتقد أحدنا الآخر
ولا نخشى النظر خلفنا .

بونٌ شاسعٌ بيننا
هل نُحمِّل أنفسنا تبعة ما جرى ؟
أيتها الحبيبة
حَسْبنا تبعةُ ما سيجري

أيتها الحبيبة الغالية
يا من يتسلل الضوء عبر شَعرك
متلألئاً على قطرات الندى
مُتمِّماً اللوحة الأولى
على وجه البسيطة !

خذي ما طالته يدي
وليكن اسمه الثمرة
ولينعم روحك
ومن بعد أناديكِ
إليَّ !
وليكن اسمك الأنثى
إليَّ
نخبُّ نحو ما ينبغي أن يكون
معاً
باتجاه الومضة الأولى
على مفترق الطرق

بين العتمة والنور
بين تلويث الفضاء والرمال الطاهرة
في ملتقى البصيرة بالبصر
إليَّ
أيتها المتكاملة بلا شطط
إليَّ
نحفظ التوازن
في دوّامة الحركة والسكون
والرائح والغادي
الممكن والمستحيل ..
يتضرع القلب
لنهارٍ اغتسل لتوّه بالمطر
مقدماً على مغامرات صغيرة
لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر في موازين العالم
وينتظر بلا هوادة
ينتظر سبعة أعوامٍ متتالية
على الرصيف

قبالة الدكان المغلق
المعلقة على واجهته لافتة باهتة :
« أعود بعد قليل » ..

حكومات تسقط
« أعود بعد قليل » ..
تثار فضائح
« أعود بعد قليل » ..

تنشب حروب
يتم التوقيع على اتفاقيات لا حصر لها
وهو ينتظر
قبالة الدكان المغلق
الذي « سيعود بعد قليل »
صاحبه الميِّت بالسكتة القلبية
منذ سبعة أعوام
في غرفته المجهولة على السطوح ..
ليتقدَّس اسمك أيها الموت

لتكن مشيئتك
أيها الفرح
ليأت ملكوتك
أيتها القيامة ..

وبعد ،
نلفُّ الميت بفراشه
نعدّ له جنازة مناسبة
ثم ننكص على اعقابنا
إلى المنازل المهجورة في السهوب
حيث ترنُّ أجراسَ القطعان
ويغني الرعاة العصريون
ما علق بالذاكرة
من أغاني الحب السالفة !

وبعد ،
يولد أطفال آخرون
يسألون آباءَهم بقسوة :

لماذا ؟

متى وكيف ؟

لن يكون آنذاك من يجيب

غير المياه الجوفية :

أنا الحزن

أعلن براءَتي

أنا الشهوة

أبسط نفوذي

أنا الحب

أنشر قلوعي على اليابسة

وأنثر بذاري في أثلام البحر

أنا الكراهية

ناركم .. ناركم المقدسة !

لن يظل شيء على حاله

ثمة تفاعلات بعيدة المدى

تفرض نفسها

وتقيم سُننها الجديدة
على .الرمال الطاهرة
إلآخذة بالتلوث
بزيوت المصانع
بالحرائق
بقيء المحزونين والمرضى
والضجيج البشري ..

بعد استنطاق الظواهر الطبيعية
والنار
والأنصاب
والآلهة المعجونة من التمر
بعد استنزاف الشجيرات المحترقة
بعد الخد الأيسر والخد الأيمن
بعد أسنان المشط
والتقوى
بعد عمال العالم المدعوين إلى الاتحاد

لا بد من الجزاء خيراً
ذلك أن الأطفال
موشكون على الذهاب إلى مدارسهم
فلتهدأ العاصفة قليلا
وليفسح الظلام جانباً من الطريق
لأجلهم
لأجلهم فقط
لأجل الأطفال
الذاهبين إلى مدارسهم
بعد القيامة !

(١٩٨٢/١٠/٢٩)